الجلال والجمال
في رسم الكلمة
في القرآن الكريم

دكتور
سامح القليني

الطبعة الأولى : رمضان ١٤٢٩ / سبتمبر ٢٠٠٨

يطلب من :
المؤلف الدكتور/ سامح عبد الفتاح القليني
E-mail: sameh_kaleeny@yahoo.com
ت : ٠١٠٣٨٤٠٥٠٧

ومن مكتبة وهبـــة
١٤ شارع الجمهورية ــ عابدين ــ القاهرة
ت : ٢٣٩١٧٤٧٠
والمكتبـات العامـــة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٨/١٧٢٠٠
بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٢

المقدمة

الحمد لله موصولا كما أمرا ....مباركا طيباً يستنزل الدِّررا

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

إن موضوع البحث فى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ليس بالأمر الهين ، والحديث فى خصوصيات رسم الكلمة فى القرآن الكريم بصفة خاصة يحتاج إلى بحث عميق وتدبر طويل وإلى استرجاع لما قاله علماء البلاغة و علماء التفسير و علماء علم القراءات وعلماء علم الصوتيات ، وغيرها من باقى أصناف العلوم التى سنعيش معها من خلال بحثنا هذا.

والدراسات التى سبقت هذا الكتاب تعتبر نظرات جزئية لاتتناول إلا أمثلة محدودة لاتعطى تفسيراً شاملاً لهذه الظاهرة الخطيرة ، ولذلك قررت أن أخوض في هذه المشكلة بكل تفاصيلها بعقل فارغ من أى تعصب ، وغير مدفوع بعقيدة تسيطر على البحث أو توجه التأويل سوى البحث عن الحقيقة.. بل إننى دخلت البحث من جهة الشك لأصل إلى الحقيقة المجردة حتى وصلت إلى وجه الحق واليقين الذى سيراه القارئ عملياً وعلى أرض الواقع بالبرهان والدليل الساطع،الذى ينادى بالمعجزة العليا حتى فى رسم الكلمة فى هذا الكتاب المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. كتاب أحكمت آيته ثم فصلت... ووجدت الصدق الكامل لحديث الرسول الحبيب (ﷺ) فى قوله الشريف عن هذا الكتاب الخالد (لا يشبع منه العلماء ولا تنقضى عجائبه...).

والبحث فى هذا الكتاب العظيم له متعة عقلية وروحية لايعرفها إلا من تذوقها، فضلاً عن أنه من أجَل العبادات وأمتعها، ومن ذاق عرف .. *ومن عرف بلغ*.....!

والبحث فى القرآن الكريم هو (إمتاع للعقل وإشباع للعاطفة)، شأنه شأن كل الأبحاث التى تبحث فيه دائماً – وإن كان هذا البحث من أمتعها وهو بحث جديد وله

جذور عميقة أيضاً – كما سنرى– وأتمنى أن يكون كذلك عندك أيها القارئ وأن يكون خالصاً لوجهه تعالى .

ومما يزيد هذه المتعة إمتاعاً أنها إضافة جديدة لكتاباتى الأخرى عن ألوان أخرى مختلفة من الإعجاز فيه ما فيه من هذه المتع الروحية والعقلية وهو (الإعجاز القصصى والتكرار فى القرآن الكريم ..ولماذا التكرار فى القرآن الكريم؟) ،وقد عشت فيه ومعه أمتع أوقات حياتى، مضيفاً إليه إعجاز القرآن فى اختيار الكلمة بحروفها التى تصور المعنى كاملاً وترسم المشاهد بصوت الكلمة وصوت حروفها،كأنها لوحة فنية بديعه، وهو ما نسميه (جرس الكلمة فى القرآن) – والذى سنعيش مع طرف منه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى – وفيه نرى كيف يرسم جرس (صوت) الكلمة المشاهدَ الحية والمتحركة والنابضة بالحياة بحروف هذه الكلمة المختارة بالدقة البالغة والمدهشة فى القرآن الكريم –المعجزة الخالدة التى لا يشبع منها العلماء ولا تنقضى عجائبه.

ومن الجمال فى هذا البحث والأبحاث الأخرى فى القرآن الكريم أن يكون اعتمادنا بالصفة الأساسية على النص القرآنى نفسه بالدرجة الأولى، مستصحباً معه آراء أعظم المفسرين وعلماء البلاغة وعلماء علم القراءات ،وقد تحريت على قدر الإمكان أن يكتب هذا البحث بطريقة سهلة وميسرة،وبلغة بسيطة يفهمها القارئ البسيط أيضاً والذى ربما لا يستسيغ القراءة أو السماع لعلم النحو،أو علم القراءات،أو البلاغة العربية بصفة عامة والبلاغة القرآنية بصفة خاصة .

وقد تأخرت كثيراً فى طبع هذا البحث ، بل لقد قمت بإصدار كتب أخرى مثل كتب (مقارنة الأديان، الرد على الشبهات) كنت أعتبرها فى المرتبة الثانية فى مرتبة الأولويات، وكنت أنوى تأخيرها، وذلك لإحساسى بعظمة وهيبة وجلال الحديث فى هذا الكتاب المعجز – القرآن الكريم –، ولشعورى الدائم أننى كلما ظننت الانتهاء والإكمال لهذا البحث أو غيره، أجد أننى لم أوف هذا الموضوع قيد أنملة من حقه ، وأتيقن تماماً أننى مازلت مقصراً فى حقه ، وكلما ازددت ادعاءً بعلمى لبعض أسراره كلما ازددت إحساساً بجهلى وعجزى ، وأنه مازال هناك الكثير والكثير قبل نشره، وإحساسى ويقينى – أيضاً – أن هذا البحث لا يقوم به فرد واحد، بل ولا جيل واحد من الأجيال، ولكنه يحتاج إلى جهد أجيال متعاقبة ، ولن يوفوا أيضاً هذا الإعجاز حقه ، وسيظل إعجازه إلى أن تقوم

الساعة، وصدق أستاذنا الدكتور (فاضل السامرائى) حيث يقول عن اللفظ القرآنى: (... كل ذلك يضعه المولى وضعاً فنياً فى غاية الروعة والجمال. ثم هو يجمع بين ضروب القول المختلفة ويؤلف بينها فى حشد فنى عجيب لا يملك العارف بشئ من أسرار التركيب إلا أن يسجد لصاحب هذا الكلام إجلالاً وخشوعاً : **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** (٢٣) الزمر.

لقد دُرس التعبير القرآنى دراسات مستفيضة ، وأُولى من النظر ما لم ينله نص آخر فى الدنيا. فقد دُرِسَ من حيث تصويره الفنى فكان أجمل تصوير وأبرع لوحة فنية، ودرس من حيث نظمه وموسيقاه، فكان أروع عقد منظوم وأعذب قطعة فنية موسيقية، وهل يشك أحد فى فخامة نظمه، وحلاوة موسيقاه ، وعذوبة جرسه، وحسن اختيار ألفاظه ، وجمال وقع آياته؟!

ودُرس تناسب سوره سورةً سورةً ، وتناسب آياته آية آية ، وتناسب فواتح السور وخواتمها، فكان قطعة فنية واحدة محكمة الربط فخمة النسج، وكان كما قال الفخرالرازى: إن القرآن كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض ، بل هو كالآية الواحدة.

ودرس من حيث إعجازه فكانت جوانب إعجازه لاتحصى؛ أهو فى أسلوبه وتعبيره، أم فى تشريعه وفقهه، أم فى معالجة جوانب الحياة المختلفة على أكمل وجه وأبهى صورة، أم فى إخباره عن الأمم الماضية والأقوام البائدة ؛ أم فى إخباره عما سيقع ؛ أم فيما قرره من حقائق علمية وكونية يكتشف الناس على مدى الدهر قسماً منها، أم فيما وضعه من قواعد وأصول التربية ومعرفته بأدواء القلوب والنفوس،أم فيما ذكره من سنن التاريخ والخلق، أم فيما ذكره من أصول علم الاجتماع، أو غير ذلك وغيره، أم هو فى كل ذلك وأشياء أخرى فوق ذلك؟!

أهو كتاب لغة، أم كتاب أدب، أم كتاب تشريع، أم كتاب اقتصاد، أم كتاب تربية، أم كتاب تاريخ، أم كتاب اجتماع، أم كتاب سياسة، أم كتاب عقائد، أم هو كل ذلك وفوق ذلك؟!.

عجيب أمر هذا الكتاب! يراه الأديب معجزاً، ويراه اللغوى معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً، ويراه المربون معجزاً، ويراه علماء

النفس والمعنيون بالدراسات النفسية معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخ فى علمه معجزاً.

لقد كشف لهم وهم يبحثون فى وجوه إعجازه عن بحار ليس لها ساحل، وغاصوا فى لجج ليس لها قعر، وكلٌ عاد بلؤلؤة كريمة أو عقد نظيم ، وبقيت ثمة خزائن تفوق الحصر لم يلجها الوالجون، وكنوز لا يطيقها إحصاء، لم تمتد إليها الأيدى، تفنى الدنيا ولا تفنى، ويبلى كل جديد ولا تبلى، فيها من عجائب صنع الله ما لو اطلعت عليه لم تعرف كيف تصنع ، ولاستبد بك عجب لا ينتهى ، وتمكن منك انبهار لا ينقضى ، ومفتاح ذلك تدبره والنظر فيه ، فامنحه شيئاً من التدبر والنظر يمنحك من أسراره ما لم يكن منك ببال، إنه يعطيك أضعاف ما تعطيه.

إن هذا الكتاب يمنح من نظر فيه وتدبره خزائن بغير حساب ، ويفتح الله عليه من ألطافه ما يجل عن الوصف ، فلا تضيع هذه الصفقة الرابحة وإلا فأنت والله مغبون.

أأدركت الآن سر قوله تعالى: **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)** ؟! أما إنهم لو تدبروه لفتحت أقفال القلوب، ولان ما كان عصياً من الأفئدة ، ولأوقدت مصابيح عهدها بالنور، وأشرقت دروب لم يسقط عليها فيما مضى نور، ولحَيَت نفوس ما عرفت قبل ذلك حياة.

ألم يسمه الله نوراً؟ فقال: فى سورة النساء (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤)**).

أو لم يسمه الله روحاً؟ فقال: فى سورة الشورى (**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)**).

فهو روح ونور، وهل بعد ذلك شئ، وهل قبله شئ؟ ليت شعرى هل يفقه الناس؟! ألا ليت الناس يفقهون .) انتهى من التعبير القرآنى.

وأعود وأكرر: إن البحث فى رسم المصحف الشريف قضية ليست ككثير من القضايا: فهى جلالة قدر ، وحرج مسلك ، وهيبة مقام. فهى تعرض للقرآن الكريم فى بعض كلماته وتبيين معناه ، ونحاول بالنظر الصحيح والرأى الرشيد أن نصل إلى بعض أسراره ،ولاندعى الوصول ولكنها محاولة للوصول إلى كلمة سواء يصح الأخذ بها والاطمئنان إليها، وما كان لقضية كهذه أن يسهل صعبها، ويدنو بعيدها، إلا بجبل من الله

ومدد من عونه، وعلى نور من هداه. فلم يكن إلا أن أرجع إليه- سبحانه- خاشعاً متضرعاً أسأله- عز شأنه- أن يجنبنى فيها زيغ القول ويعصمنى من خطل الرأى ويباعد بينى وبين التكلف والاعتساف.

وقد تعمدنا فى بحثنا هذا على أن يجمع بين القديم والجديد ؛ وأن يكون محاولة تأصيلية نسمع فيها أراء العلماء القدامى وعلى رأسهم الإمام: المراكشى، الزركشى، السيوطى وغيرهم من فطاحل وأئمة التفسير والبيان من علمائنا الأجلاء.

وفى أثناء عملية التأصيل هذه قمنا باختيار ومناقشة أساتذة عظام لهم باع عظيم وعلم غزير فى علوم البلاغة والقرآن ، ولهم إخلاص وغيرة على كتاب الله عز وجل ، وكان فى مقدمتهم أستاذنا العظيم الدكتور :(عبد العظيم المطعنى) أستاذ البلاغة والنقد بالأزهر الشريف وصاحب المكتبة القرآنية العظيمة ومؤلفاته الكثيرة (ومنها: خصائص التعبير القرآنى، والمجاز فى القرآن الكريم وهو مجلد يصل إلى ألف صفحة، دراسات جديدة فى إعجاز القرآن، وسلسلة ردود إسلامية).

وقد اخترنا عرض ومناقشة مقالاته التى كتبها حول هذا الموضوع (خصوصيات الرسم العثمانى) والتى قام بنشرها على صفحات مجلة منبر الإسلام فى خمس وعشرين مقالة بدأها من ديسمبر ٢٠٠٠ .. لأن فضيلته قد قام بعرض آراء علمائنا القدامى الذين ذكرنا أسماءهم ، ولكنه عرض أدبى مبسط – أغنانى عن تكرار قولهم -، وقام فى بعضها بإضافة رأيه الخاص أيضاً، وقد كنا فى بداية البحث نود أن نعرض لرأى أجلة علمائنا القدامى ولكن كفانا ذلك أستاذنا المطعنى – وهو أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر الشريف وله أسلوبه الأدبى المميز وقد عاش أطراف المحنة التى تنادى بتغيير الرسم العثمانى – رسم المصحف- وادعاء خلوه من الحكمة- ، مع مراعاة أننا سنتعرض لما تركه من أقوالهم ، وسنناقش ما عرضه من آراء وما تركه من استنباطات رغبة فى محاولة منا للوصول إلى عرض كامل وشامل للقضية على قدر الإمكان - كما سترى ذلك عزيزي القارئ -.

وفى أثناء عرضنا فى هذا البحث لم ننس إشراك أفاضل علمائنا فى هذا العصر من فرسان البيان وعلماء البلاغة واللغة من أمثال أستاذنا العملاق الأستاذ الدكتور(فاضل السامرائى) صاحب المكتبة القرآنية والنحوية العظيمة والتى منها : (معانى النحو وهو فى أربعة مجلدات، والتعبير القرآنى، وبلاغة الكلمة) وغيرها من الكتب والمقالات التى تشير إلى المكانة العالية لصاحبها فى علم البلاغة والبيان.

وقد قمنا فى أثناء بحثنا هذا بالتعرض لبعض وأهم الكتب التى يشير إليها بعض العلماء الأحباء لنا ، ولكنها تسير فى الاتجاه المعاكس لمنهج بحثنا هذا ، مراعاة منا لسماع كل ما قيل من الطرف الآخر ومناقشته على أرض الواقع ، وأشهد الله تعالى أن هذه المناقشة ما كان من هدف منها إلا ابتغاء وجه الله تعالى والبحث عن الحقيقة والوصول إليها ، ونكن لكل هؤلاء العلماء كامل التقدير والاحترام .

وكان من هذه الكتب كتاب (*رسم المصحف دراسة تاريخية*) للدكتور(غانم قدورى) .. وقد اخترناه لمكانته التى أشرنا إليها ، وقد كان عبارة عن رسالة دكتوراه،وهو أكثر من سبعمائة صفحة، واخترنا مناقشته لما رأيناه من الضرورة القصوى لإتمام بحثنا وإكماله، ولتكون الصورة واضحة دون إهمال لرأى الطرف الآخر.. وسنرى كيف يتناقض هؤلاء فى أقوالهم وهم يناقشون القضية بعيداً عن أرض الواقع ، وبدون استجلاب النصوص ومقارنتها . فهو يقول رأياً ويعلم أن آلافا غيره يقولون بغير هذا الرأى التاريخى غير الموثوق فيه – كما يذكر هو ، ويرجح –.. وليس فى ذلك شىء من الحقيقة التى تطمئن بها النفس – كما سنرى–..

وسنقوم فى بحثنا هذا بمناقشة هؤلاء الذين توهموا أن هذا الرسم القرآنى خطأ من الكاتب ، وهؤلاء الذين قالوا بأنه سرٌ من الأسرار لايعلمه إلا الله مثله مثل الحروف المقطعة فى بداية بعض السور، وهؤلاء الذين حاولوا الوصول ولكن قصر باعهم وأعلنوا أنه إعجاز عظيم يحتاج إلى جهد أجيال وأجيال وليس جيل واحد أو فرد واحد.

ولكننى أسأ ل هؤلاء الذين توهموا أن هذا الرسم القرآنى خطأ من الكاتب : لماذا لم يحدث ذلك العجز والخطأ الكتابى أو التطور الكتابى!!– كما يسميه هو – فى كتابات كانت معاصرة لكتابة القرآن الكريم – وبنفس أيدى كتبة الوحى – مثل أحاديث النبى (ﷺ) التى سجلها العلماء وحفظوها لنا؟ بل لماذا بقيت هذه الكتابة محفوظة فى رسائله (ﷺ) للملوك والأمراء مثل المقوقس وملك الحبشة وغيرهما، والتى سجلها التاريخ بحروفها كما هى، وقد كتب النبى (ﷺ) فيها كلمات مخالفة لما هو فى الرسم القرآنى مثل كتابته كلمة (الكافرين) بالألف، وهى مكتوبة فى القرآن بدون ألف

(ٱلْكَٰفِرِينَ) .. وكتب النبى (ﷺ) الآية: وكلمته (ألقاها) بالألف .. وهى فى القرآن بدون ألف (أَلْقَىٰهَا).....وكان يكتب لهم (يا أهل الكتاب) بالألف رغم أنها فى كل القرآن مكتوبة بدون ألف (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ) ....، ونقول له أن الكتبة هم الذين كتبوا الوحى أيضا بأيديهم وفى نفس هذه الحقبة التاريخية ، وفى زمن وجود النبى (ﷺ).

بل ونعيد عليه السؤال مرات ومرات : لماذا كتبوا فى القرآن نفسه أسماء سور القرآن (بالألف) بطريقة مخالفة لرسمها القرآنى التى كتبت جميعها (بدون ألف) مثل:الصافات ، والحجرات ، والذاريات، والمنافقون، والطلاق ،القيامة ، والإنسان ، والمرسلات ، والنازعات والغاشية والعاديات والكافرون وغيرها(جميعها كتبت فى عنوان السورة بالألف) رغم ورودها فى الرسم القرآنى فى بداية وداخل السورة بدون ألف،وكاتبهم هو هو كاتب الوحى أيضاً.. ،وكذلك كتبوا عنوان سورة الليل بلامين وهى مكتوبة فى القرآن كله بلام واحدة (اليل).. فلماذا لا يتأثر كل ذلك – ومعه رسائل النبى (ﷺ) – بهذا المنهج التاريخى الذى يشير إليه كاتبنا دائماً ، ويلغى أى فكرٍ آخر تنطق به النصوص وينطق به رسم الكلمات كما سنرى .

وقد قمنا فى هذا البحث بالتعرض لنوع آخر من أنواع الإعجاز فى القرآن الكريم وهو ما نطلق عليه "جرس الكلمة" ، وسنرى على عجالة كيف أن حروف الكلمة ترسم – بصوتها – المشهد الذى تعبر عنه هذه الكلمة – صوتاً وصورة – بإعجاز لم يسبق له مثيلٌ.

وكما يقول الدكتور عيد الطيب فى كتابه (فى فقه اللغة من قضايا الدلالة): أن الدلالة الصوتية تتمثل فى مماثلة جرس الأصوات ورنينها لجرس الحدث ورنينه عندما يكون الحدث من المحسات بحاسة السمع.. وقد تكون هذه الدلالة العرفية قائمة على حسن الاختيار ودقته ، ويتمثل ذلك فى الآتى:

(١) مناسبة صفات الصوت للمعنى.

(٢) مناسبة زمن الصوت لزمن الحدث.

(٣) مناسبة صيغة اللفظ للمعنى.

(٤) زيادة المبنى لزيادة المعنى.

وسنرى ألوانا أخرى – فوق ما ذكره أستاذنا– وسنرى أن هذا النوع من الإعجاز لا ينفصل عن الإعجاز فى رسم الكلمة من زيادة حرف أو نقصانه ، أو فتح

التاء أو قبضها، أو غير ذلك مما سنعيشه فى بحثنا هذا إن شاء الله ، بل إننا سقنا هـذا البحث "جرس الكلمة" لأنه عنصر هام ومكمل ولا ينفصل عن موضوع كتابنا هذا ، وأنه من نفس المصدر الذى جاء منه باقى أنواع الإعجاز وعلى رأسها الإعجاز الصوتى والبلاغى. ولعله من المفيد أن يعلم القارىء نبذة سريعة عن موضوع البحث فى رسم الكلمة على هذه الصورة المخالفة لرسمها المعتاد :

(١) فأحياناً تعلو نبرة الحديث فى السياق فنجد إضافة الألف فى الكلمة ، وأحياناً أخرى تهدأ نبرة الحديث فتحذف الألف– كما حدث فى رسم كلمة "سبحان"؛ حيث كتبت فى سورة الإسراء بالألف الظاهرة، حينما كان السياق ملتهباً وعالى النبرة فى مجادلة القوم مع النبى (ﷺ) ورده القاطع والحاسم عليهم.... وفى باقى الآيات فى السورة وفى السور الأخرى حينما كانت النبرة هادئة ودعوة للتسبيح فقط حذفت الألف فكتبت (سُبْحَنَ) فى آيات كثيرة سنعيشها فى بحثنا هذا إن شاء الله.

(٢) وأحيانا يقوم رسم الكلمة برسم صورة للهدم والإفناء فتحذف الحرف من الكلمة، وترسم صورة البناء والتشييد فتزيد الحرف (راجع بحثنا عن : ترابا بالألف وبدون الألف ،عظاما بالألف وبدون ألف..وغير ذلك).

(٣) وأحياناً ترسم الكلمة الصورة المادية فتضع الألف ، وأحياناً ترسم الصورة المعنوية أو الغيبية أو الملكوتية فتحذف الألف (راجع على سبيل المثال: القواعد بألف وبدون ألف، وغيره).

(٤) وأحياناً تفرق الكلمة بين المجاز والحقيقة فى الكلمة والمشهد المعروض وذلك بحذف الألف أو وضعه ؛ فترسم صورة لمشهد المجاز بحذف الألف ، ثم تعود بنفس الكلمة فترسمه على الحقيقة بإضافة الألف.

(٥) وأحياناً ترسم الكلمة صورة للمشهد السريع أو المتناقص بحذف الألف ، والمشهد المتباطىء أو الكامل بوضع الألف (ويدع الإنسن..).

(٦) وأحياناً ترسم صورة المشهد أو الفعل المتحرك بإضافة الألف، وترسم صورة المشهد الساكن بحذف الألف (كمثال: باسط – بالألف وبدون الألف..وغيره).

(٧) وأحياناً ترسم خفة الحدث بخفة الحروف ، وثقل الموقف أو تفخيمه بزيادة حرف أو أكثر (جزاء، جزاؤا.. دعاء ، دُعَتُؤا،... الضعفاء ، ٱلضُّعَفَتُؤا..أبناء ،

أَبْنَتُؤْا...البلاء ، ٱلْبَلَتُؤْا.. ٱلصَّلَوٰةَ ، الربا ، ٱلرِّبَوٰا..وراء حجـــاب، مِن وَرَآيِ حِجَابٍ .. وهكذا الكثير).

(٨) وأحيانا يفرق رسم الكلمة بين صورة الفعـــل وصـــورة الاســـم (نعمـــة الله لا تحصوها...نعمت الله لا تحصوها ، رحمة، رحمت...ســـنة ، ســـنت...امـــرأة، إمرأت...شجرة الزقوم ، شجرت الزقوم... جنة، جنت..).

(٩) وأحياناً ترسم الكلمة صورة الفراش الهادىء والمريح (تعبر عنه بحذف الألـــف – (ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا–) وترسم اشتعاله واضطرابه والتقلب عليه بإضافة الألف (لهم من جهنم مهاد).

(١٠) وأحياناً تلفت النظر إلى الفرق بين صفات الخالق وصفات المخلـــوق بإضـــافة الحرف أو حذفه ، بل وبين صفات الخالق نفـــسها مثـــل (تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ) فـــالأولى(الجـــلال) بـــدون ألـــف والثانيـــة (الإكـــرام) بالألف،و(تبارك) بالألف وبدون ألف.. وهكذا.

وأحيانا تفرق بين أفعال الخالق وأفعال غيره (طائف مـــن ربـــك ، طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ) وغير ذلك تحت هذا العنوان.

بل أحياناً ترسم شجرة العائلة رسماً مبهراً من (الأبناء ، والوالـــدة والوالـــدين والأخوات والعمات والخالات والزوجات والصاحبة.. وكل هذه الصور من العلاقة فى شجرة العائلة بدقة رهيبة نراها فى بحثنا هذا تحـــت هـــذا العنـــوان (شجرة العائلة كما رسمها القرآن بحروف الكلمة).

(١١) وتفرق بين المادى والمعنوى (لدا الباب ، القلوب لدى الحناجر).

(١٢) وأحياناً تعبر عن نقص الحدث بصورته وبزمنه وذلك بحذف الحرف ، وتعـــبر عن اكتماله بإضافة الحرف.

(١٣) ومن الإعجاز أيضاً أن تُرسَم الكلمة رسماً يجمع بين وجوه القراءات المختلفـــة بصورة مدهشة ؛ كما سنراه تحت عنوان (مدخل إلى إعجاز الرسم من خلال القراءات والإمالة)؛ وكأن هذا الرسم للكلمة يؤلف بين هذه القراءات وبـــين ألسن العرب.

(١٤) والرسم القرآنى يفرق بين المشهد التصويرى الحالى وبين حكاية حال غائبـــة أو ماضية .

وهكذا يفرق أيضاً بين شدة وضراوة المشهد ، ولين وهدوء الموقف الآخر، وبين مشهد السرعة ومشهد البطء والهدوء ، ، ويفرق بين مشهد النصح باللين أو التعنيف والشدة ، وبين موقف تعلو فيه نبرة التهديد والوعيد وعذاب جهنم ، وبين آخر يسود فيه موقف البشارة والتبشير ، بل أحياناً يرسم صورة الشيء المتحدث عنه بارتفاعه أو انخفاضه ، أو إذا كان يحتاج الستر والإخفاء أو الظهور والاستعلاء ، ويرسم بجرس حروف الكلمة عمق الشيء أو سطحيته ، ويرسم بجرس الكلمة ورسم حروفها ما إذا كانت الكاميرا المصورة هنا تصور على الأرض أم تصور فى السماء، أو يرسم الكلمة على صورة الفعل نفسه : فإن كان الفعل يشير إلى الهدم والإفناء كتبت بغير الألف (القواعد و..)، وإن كان عكس ذلك كتب بالألف .

وكذلك يصور صورة الفعل والصفة : إن كان فعل حركة، وحركة إيجابية،كتب بالألف ، وإن كان يشير إلى السكون أو حركة سلبية كتب بغير الألف،(باسط ، عامل) وهكذا)).

وفى دراستنا هذه سنتعرض لبعض هذه الكلمات القرءانية التى جاء رسمها مخالفاً للقواعد الإملائية المتعارف عليها، ونحاول أن نتلمس وجه الحكمة فى ذلك كما يقول صاحب كتاب الإبريز "للشيخ عبد العزيز الدباغ"عن رسم الكلمة فى المصحف: وهو سر من الأسرار خص الله بها كتابه العزيز دون سائر كتبه السماوية.. وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز.. وكل ذلك لأسرار إلهية وأغراض نبوية .. وإنما خفيت على الناس لأنها أسرار باطنية لاتدرك إلا بالفتح الربانى ، فهى بمنزلة الألفاظ والحروف المقطعة التى فى أوائل السور، فإن لها أسراراً كثيرة ومعانى كثيرة، وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئاً من المعانى الإلهية التى أشير إليها، فكذلك أمر الرسم الذى فى القرءان حرفاً بحرف ..(من مناهل العرفان للزرقانى).

وسنحاول فى بحثنا هذا إشراك القارىء الكريم معنا فى البحث والغوص فى بعض أسرار اللفظ القرآنى والرسم القرآنى للكلمة ، وسنعيش معاً أمتع لحظات العمر ، كما هو شأن القرآن دائماً الذى عودنا على الجمال والكمال ، وعلى إمتاع العقل وإشباع العاطفة ، وكما قال الحبيب (ﷺ):... لاتزيغ به الأهواء..، ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد))

ولعل من المدهش أن نرى صورة هذا الإعجاز فى رسم الكلمة فى بداية أول آية فى كتابه الكريم فى قوله تعالى (بسم الله) وقد كتبت (بسم) بدون ألف ، رغم ورودها فى سياقات أخرى مثل (باسم ربك...) وقد وضع فيها الألف .. ويظل دائماً السؤال فى رحلتنا هذه : لماذا تم هذا ؟ وما الحكمة فى ذلك ؟ حتى لانكرر هذا المعنى فى كل مثال، وعلى سبيل المثال:

(١) لماذا كتب (كتاب) مرات بالألف ومرات بدون الألف ، وهكذا كلمة (قرءان) بالألف ومرات أخرى بدون ألف ؟ بل إن الأمر ليتطور إلى أعلى من ذلك ليكون السؤال هو: فى مقدمة سورتى النمل والحجر – على سبيل المثال – لماذا قال فى الحجر: الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءان مُبِين (١) وفى النمل: طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْءان وَكِتَاب مُبِين (١)، فقدم فى الحجر (الكتاب) ورسمه بدون ألف وأخر فى النمل (الكتاب) وكتبه بالألف ..

فلماذا حدث ذلك ؟ وهل هذا المذكور يتناسب مع ظل ورسم مشاهد كل سورة رسمت فيها هذه الكلمة بتلك الصورة ؟؟ أو هل هذه السورة (جميعها) تحتاج هذه الرسمة وهذا التقديم بخلاف السورة الأخرى ؟ هذا ما سنجيب عنه بالتفصيل فى داخل البحث ، وقد كان هذاالسؤال من بعض أسئلة الإخوة المشاهدين لى على قناة البركة الفضائية. إضافة إلى بعض الأمثلة الأخرى مثل:

(رءا) فى آيات كثيرة و(رأى) فى آية واحدة....

و(سَمَـٰوَات) فى كل القرءان بدون ألفين ، ماعدا آية فصلت كتبت (سَمَـٰوَات) أظهر فيها الألف الثانية..... (بأيد سفرة) بياء واحدة و(السماء بنيناها بأييد) بياءين،.... (بأييكم)، و(أيكم)... (أفأين مات) وحقها أن ترسم (أفإن)،، (إن). ..

(آناء الليل) و(ءاناىء الليل) ....و(إيتاء الزكاة) (أيتاىء ذى القربى).

(أيها..) و(أيه) ... (صاحبه ، صحبه).....

(الرسولا) وهى لاتكتب بالألف أبداً إلا فى هذا اللرسم القرآنى ، والأخرى (الرسول)..... وهكذا (السبيلا) و(السبيل).. و(الظنونا) و(الظنون)...

و(جاء) و(وجاىء) و(الصلوة ، الزكوة، والنجوة، الغدوة)...

(وبالولدين إحسانا) وأخرى (وبالولدين إحسناً) ..... (جعل الأرض مهدا) (لهم من جهنم مهاد) ..... و(هاجر) جميعها بالألف و(جهد) جميعها بدون ألف حتى لو كتبتا فى آية واحدة أو فى آيتين منفصلتين.

تـــراب .. (تُرَابًا) .. ومثلـــها(عظامـــا) و(عِظَٰمًا) .... ومثلـــها (الغمـــام) و(ٱلْغَمَٰم).....(الرياح) و(ٱلرِّيَٰح) وقرءتا بصيغة واحدة وهى الجمـــع..... (القواعـــــد) و(وَٱلْقَوَٰعِد).....(شـــــاهد ، شـــــــهد)... (بـــــأفواهكم، بافوهكم)....ويقول للزوجين (إن يريدا فصالاً) ، وفى فطام الأم لطفلها:(وفصـــــله فى عامين).... (سعوا فى آياتنا معجزين)بالألف فى نهاية الكلمـــة (ســـعوا)، ووردت بنفس هذا النص ولكنها بدون ألف فى (سعو).... (إسطـــــــعوا) و(استطـــعوا) ....و(طغى) ، (طغا) والنطق واحد.. (سراجا) و(سرجاً)....(للطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ..)،... (وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ).

وهكذا كلمة (كذّابا) بالألف و(لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا) بدون ألـــف والنطق واحد...(وجاؤوا) و(وَجَٰوَزْنَا)....(ولاتك فى ضيق) و(ولاتكن فى ضيق) ...، (ساحر) و(سَٰحِرٍ)....(واشهد بأنا) و(واشهد بأننا).... و(ليكونن..) و(ليكوناً مـــن الصاغرين) و(لنـــفعاً)...و(إبرهيم) فى كل القرءان بالياء بعد الهاء، ماعـــدا ســـورة البقرة(إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ) بدون ياء.... و(اليل) بلام واحدة – أى أن الكلمة ناقصة ، بخلاف (النهار) جاءت كاملة. ٱلْقَوَاعِد، وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ....(نبغـــى) و(نبـــغ).. و(يأتى) و(يأت).... (واخشونى) و(واخشون) (عسى ربى أن يهدينى) ، (عـــسى أن يهدين ربى) حذف حرف الياء من "يهدينى" وتقديم ربى فى الآية الأولى....(ثم كيـــدون فلا تنظرون.. فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون).

وهكذا فى أمثلة أخرى للحذف مثل:

(يدعوا) و(يدع) بدون وجود حرف جزم قبلها يستدعى حذف الحرف .. وهكـــذا (يمحو) و(يمح)

ونوع آخر من الإعجاز فى رسم الكلمة سنعيشه فى بحثنا هذا وهو فتح التـــاء وقبضها مثال:–

(رحمة) و(رحمت) .. و(نعمة) و(نعمت)... و(شجرة الزقوم) و(شـــجرت الزقـــوم) ، (سنة) و(سنت) ،(لعنة ، لعنت)، (جنة ، جنت)، (إمرأة ، إمرأت).

وهكذا الكثير والكثير الذى سنعيشه فى داخل البحث فى رحلة ممتعة ومشبعة مع لون عظيم من إعجاز القرآن ، وسنحاول أن نكفى الموضوع حقه – وإن كان هذا

بالطبع غير مستطاع ولا ندعيه – ولكنها محاولة لأن تكون دراسة مشبعة للقارئ ومتكاملة على قدر الإمكان ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وصدق العلامة الشيخ محمد العاقب الشنقيطى حيث يقول:

والخط فيه معجز للناس وحائد عن مقتضى القياس
لاهتدى لسره الفحول ولاتحوم حوله العقول
قد خصه الله بتلك المنزلة دون جميع الكتب المنزلة
ليظهر الإعجاز فى المرسوم منه كما فى لفظه المنظوم

ويظل هناك سؤالاً دائماً يسأل وهو : هل رسم المصحف هذا توقيفى من الله والرسول محمد (ﷺ) – أى أمر برسمه على هذه الصورة –، أم أنه توقيفى عن الصحابة رضوان الله عليهم؟ وهنا اختلف العلماء فى ذلك ولكنهم أجمعوا على حرمة تغيير هذا الرسم ، ونقل الزركشى والإمام الدانى ما ملخصه: وقال أشهب سئل مالك رحمه الله هل تكتب المصحف على ما أخذته الناس من الهجاء فقال لا إلا على الكتبة الأولى ، رواه أبو عمرو الدانى في المقنع ، ثم قال ولا مخالف له من علماء الأمة.

وقال في موضع آخر سئل مالك عن الحروف في القرآن مثل الواو والألف أترى أن تغير من المصحف إذا وجدا فيه كذلك فقال لا ، قال أبو عمرو يعنى الواو والألف المزيدتين في الرسم لمعنى ، المعدومتين في اللفظ ، نحو الواو في أولوا الألباب وأولات والربوا ونحوه .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في ياء أو واو أو ألف أو غير ذلك

وقالوا عن رسم المصحف أن الصحابة قد أجمعوا جميعهم على هذا الرسم ((ولم يكن ذلك منهم كيف اتفق بل على أمر عندهم قد تحقق))

ولذلك أرى أن أقل ما يقال فى ذلك أنه توقيفى عن الصحابة (إثنى عشر ألف صحابى) رضوان الله عليهم وأنهم أجمعوا على ذلك الرسم، ويكون ذلك – على أقل تقدير – بمثابة وحى من الله لهم لحفظ أعظم كتاب فى الوجود برسمه وحروفه كما هو– محتوياً على أسرار فى رسمه ستظل شغل العلماء إلى أن تقوم الساعة مثله مثل باقى أنواع ونواحى الإعجاز الأخرى ، وهذا تصديقاً لقوله تعالى {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (٩) سورة الحجر. ويكون إلهام للصحابة أو وحى من الله لهم بذلك كما أوحى للحواريين فى قوله تعالى ({وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ} (١١١) سورة المائدة.

وهذا التوقيف عن الصحابة – على أقل تقدير – لايقلل من شأن هذا الإعجاز كما يتخيل ذلك البعض ولكنه كما يقول العلامة الدكتور عبد الله دراز فى موقف مشابه وقضية مشابهة وهى ترتيب سور القرآن وكان نفس التساؤل وقد كان يرى أن ترتيب السور – كما هو فى المصحف الشريف لدينا – هو كما رتبها الله تعالى – وليس توقيفى على الصحابة ، ولكنه قال بعد ذلك قاطعاً للجدل: ونعود الآن فنفترض جدلاً أن ترتيب السور لو لم يكن بتوقيف إلهى ، ولا بتوقيف نبوى ، وأنه كان من عمل الصحابة باجتهاد منهم، ألا يكفينا فى حرمته وقداسته أنه استقر عليه إجماعهم وإجماع المسلمين من بعدهم.. (وهذا الكلام نردده أيضاً لهؤلاء الذين ينكرون خصوصية الرسم القرآنى والذى هو على أقل تقدير توقيف من الصحابة وأجمع عليه جمهورهم).

ثم ذكر حسد اليهود والنصارى لنا على حفظ الله القرآن كما هو لا يختلف فيه حرف واحد عند سنى ولا شيعى منذ أربعة عشر قرناً.. وعلى انفصال بعض كلمات شأنها أن توصل، واتصال كلمات شأنها أن تفصل، ونحو ذلك من الرسوم القرآنية المخالفة للرسم الإملائى المقرر فى كتب النحو والصرف، ويستدلون ببقاء هذا كله فى المصاحف الإسلامية– برغم اختلاف العصور وتطور العلوم– على مبلغ القدسية التى أحاط بها المسلمون كتابهم من أول يوم، وعلى أن النص الذى تلقوه من نبيهم (ﷺ) بقى كما هو لم تنله يد قط بأدنى تغيير أو تبديل، مع وجود الحاجة إلى بعض التعديلات تسهيلاً على المبتدئين..

وفى النهاية نترك هذا الجدل النظرى ونعيش مع التطبيق العلمى لهذا الإعجاز على أرض الواقع ونسأل الله أن يعصمنا من الذلل وأن يمن علينا بفضله وكرمه .

الجزء الأول

(١)

التمهيد وخطة البحث

وقبل أن نبدأ الشرح والتوضيح نبين للقارىء أن خطة هذا البحث ستكون كالآتى:

أولاً: سنحاول التعرف على آراء علمائنا القدامى وعلى رأسهم الإمام المراكشى والزركشى والدانى والسيوطى وغيرهم من الذين خصصوا أبواباً عن رسم المصحف وتناولوه بصورة مباشرة، وقد قمنا فى بداية الأمر بتلخيص آرائهم وأقوالهم والتعليق عليها؛ سواء بالموافقة أو الاعتراض أو النقص أو الزيادة ، ولكننا لاحظنا أن أستاذنا العظيم الدكتور عبد العظيم المطعنى قام بهذه المهمة بالعرض والتهذيب والتبويب بطريقة بلاغية رقيقة – كعادته أكرمه الله تعالى – وهو أستاذ البلاغة والنقد بالأزهر الشريف وعملاق من عمالقة الفكر واللغة،وله إخلاص وحب عميق لكتاب الله عز وجل والدفاع عنه فى كل ميدان (سواء إظهار إعجازه وبلاغته ، أو رد الطعون عنه مع أكابر المغرضين فى الداخل والخارج) ، ونحن إن كنا تناولنا مقالاته – لحسن تبويبها أيضاً – مما يعطى البحث صورة التكامل والتنظيم – على قدر الإمكان– فقد قمنا بعرض هذه المقالات التى كتبها فى مجلة اللواء الإسلامى على هيئة مقالات شهرية، ولاحظنا فيها التأنى من كاتبها والاعتماد على آراء هؤلاء العلماء القدامى الذين أشرنا إليهم ، مع إضافته لبعض توجيهاته وأفكاره التى ستُمتعنا تارة ، وتحتاج منا التعليق أو التعديل أو الحذف أو الإضافة تارة أخرى ، وسيرى القارىء أننا بهذا المسلك سنكون قد أوفينا الموضوع حقه على قدر الإمكان ، لأنه ليس لنا ولا للأمة جميعها أن يصلوا إلى الوفاء الكامل بحق هذا اللون وغيره من ألوان الإعجاز القرآنى ، وسيظل دائماً نبعاً فياضاً لايشبع منه العلماء ولاتنقضى عجائبه .

وقد شاء الله تعالى أن يكون الرسم القرآنى على غير الرسم بالصورة المعتادة لدينا فى الكتابة ليظل شغل العلماء الشاغل والدائم مشيراً إلى هذا الإعجاز ومتطلباً البحث فيه إلى يوم القيامة.

وقد لاحظنا عدم عرضه لبعض أقوال القدامى (وخاصة مسألة تعدد الرسم للكلمة فى بعض المصاحف) وقد قمنا بتغطية هذا الجانب فى عناوين مستقلة ، وقمنا

بوضع مئات الصفحات متداركين ما تركه هؤلاء وهؤلاء وخاصة فى مسألة (حذف الألف) أيضاً أو (زيادته) من الكلمة فى أبواب مستقلة أو فى ثنايا تعليقنا على أقوال العلماء ، وهو باب يحتاج إلى عميق التدبر ، وقد لاحظنا أنه قد تركه الكثير ولم يخوضوا فى البحث فيه – كما سنرى.

وسنحاول فى هذا البحث استصحاب آراء أعلام البلاغة وفرسان اللغة من القدامى (وعلى رأسهم أئمة التفاسير وخاصة التفاسير البلاغية منهم) وغير القدامى من علمائنا الأفاضل وعلى رأسهم الدكتور فاضل السامرائى ؛ وهو غنى عن البيان والتعريف لما قدمه من مكتبة عملاقة فى علم البيان واللغة ، ويكفى الإشارة إلى بعض مؤلفاته (مثل معان النحو – أربع مجلدات–) و(التعبير القرآنى) و(لمسات بيانية)، (خطوات على التفسير البيانى)وغيرها من الكتب والمحاضرات التى ألقاها على طلبة الدكتوراه.... واستصحبنا معنا فى رحلتنا هذه غيره من العلماء الذين سيأتى ذكرهم فى أثناء البحث ، مع استئناسنا أيضاً بعلم القراءات وآراء علمائه، حتى يتبين للقارىء أن مسألة الإعجاز فى رسم المصحف لاتنفصل عن باقى نواحى الإعجاز الأخرى بل إنها تتعانق وتتناسق وتتكامل لترسم أروع وأبهى وأجمل لوحة فنية فتية تحوى غاية الجمال والكمال فى النص القرآنى.

ولم ننس قبل نهاية المطاف عرض ومناقشة الطرف الآخر ، وكان دكتور قدورى ممثلاً لهذا الاتجاه، وهو أكثر من تناول هذا الاتجاه فى دراسة مطولة ونشر فيه بحثاً كبيراً (أكثر من ستمائة صفحة) وكان عبارة عن رسالة دكتوراه له ، وقد أسماه (رسم المصحف) دراسة تاريخية ، وقد تعمدنا مناقشة هذا الكتاب بصفة خاصة لما رأيناه من أن بعض علمائنا من يشير علينا بقراءته قاطعاً أى مجال للبحث فى هذا اللون من ألوان الإعجاز؛ ربما تقصيراً منه أو انشغالاً عنه، وربما عدم التعمق أوالتدبر لضيق الوقت لديه، أو ربما عدم إدراكه لأطراف القضية التى كان يجب منه وعليه مناقشتها من واقع النصوص – كما سنرى – وليس من أقوال هذا أو ذاك .. والفيصل فى ذلك هو استعراض النصوص القرآنية على أرض الواقع – وهذا ما أعتقد أنه يرضى كل العلماء المخلصين والصادقين مع الله ومع النفس ـ والأمر بعد ذلك لايحتاج إلا إلى وقفة تدبر وتأمل عميق مستلهماً قوله تعالى ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ